

المحاضرة الخامسة: الدعوة الجهرية في مكة

أولاً: الأحداث التاريخية

1. الجهر بالدعوة: ما إن نزل قوله تعالى: "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216)" [الشعراء] حتى دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشيرته من بني هاشم وبني المطلب بن عبد مناف، فحمد الله وأثنى عليه وقال: (..والله الذي لا إله إلا هو، إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً) فقال أبو لهب: "هذه والله السوءة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم". فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا.. فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك و أمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب.

وبعد ما تأكد النبي صلى الله عليه وسلم من تعهد أبي طالب بحمايته صعد ذات يوم على جبل الصفا ثم قال بصوت مرتفع: (يا صباحاه) فاجتمع إليه بطون قريش، فقال: (أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي - بسفح هذا الجبل - تريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصدّقِي؟) قالوا: نعم ما جربنا عليك كذباً، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: (إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، إنما مثلي ومثلكم كمثّل رجلٍ رأى العدو فانطلق يربأ أهله¹). وفي رواية مسلم قال: (يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله ضرراً ولا نفعاً، ولا أغني عنكم من الله شيئاً. يا بني كعب.. يا بني مرة أنقذوا أنفسكم من النار.. ولا زال ينادي في قومه حتى قال: يا فاطمة بنت محمد رسول الله سألني ما شئت من مالي، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لك ضرراً ولا نفعاً، ولا أغني عنك من الله شيئاً).

فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ.. } [سورة المسد].

ثم نزل قوله تعالى: { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } الحجر/ 94 ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر بالدعوة إلى الإسلام في مجامع المشركين ونواديهم، يتلو عليهم كتاب الله، ويقول لهم ما قالت الرسل لأقوامهم: { يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } الأعراف/ 59، وبدأ يعبد الله تعالى أمام أعينهم، فكان يصلي بفناء الكعبة نهاراً جهاراً.

2. رد فعل قريش أمام الجهر بالدعوة:

تنكرت قريش لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم وأدبرت عنه، واعتذروا بعدم ترك دينهم الذي ورثوه عن أجدادهم، وأنها تقاليد حياتهم، قال تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْا كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ" المائدة/104.

فلما عاب آلهتهم وسفّه أحلامهم أجمعوا على عداوته ومحاربة دعوته بأساليب شتى، منها:

- أسلوب السخرية والاستهزاء والتكذيب: وقصدوا بذلك تخذيل المسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، فرموا النبي صلى الله عليه وسلم بتهم سفیهة، فكانوا ينادونه بالجنون { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } الحجر/6، ووصفوه بالسحر والكذب قال تعالى: { وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ } ص/4.

¹ أي يتطلع وينظر لهم من مكان مرتفع لئلا يداهم العدو .

وقد أكثروا من السخرية والاستهزاء فردّ عليهم القرآن قائلاً: { إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } الحجر/ 95، 96.

- محاولة تشويه تعاليم الدعوة الإسلامية: وذلك بإثارة الشبهات وبثّ الدعايات الكاذبة، فكانوا يقولون عن القرآن: { أَضْعَافُ أَحْلَامٍ } الأنبياء/ 5 يراها محمد بالليل ويتلوها بالنهار، ويقولون: { بَلِ افْتَرَاهُ } من عند نفسه ويقولون: { إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } وقالوا: { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } الفرقان/ 5 وأمثال ذلك في القرآن كثير.

- معارضة القرآن بأساطير الأولين، وتشغيل الناس بها عن سماع الهدى: قال تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ } فصلت/ 26. فهذا النضر بن الحارث، (وهو أحد كفار قريش) لما قدم من الحيرة وقد تعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم.. كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسًا للتذكير بالله والتحذير من عقابه حلّفه النضر وهو يقول: أنا و الله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟.

- المساومات: وقد حاول بها كفار قريش التشويش على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فقالوا نترك بعض ما نحن عليه، وتترك بعض ما أنت عليه، فأنزل الله تعالى: { فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ، وَدُوا لَوْ تَدَّهِنُ فَيُدْهِنُونَ } القلم/ 8، 9، وقالوا: تعبد آلهتنا عاما ونعبد ربك عاما، فأنزل الله تعالى سورة الكافرون.

- الاضطهادات: اجتمعت قريش على إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وكونوا لذلك لجنة من سادات قريش على رأسها "أبو لهب". وقد بدأت الاضطهادات في أواسط السنة الرابعة من النبوة لكنها كانت ضعيفة، ثم اشتدت يوما بعد يوم، وهذه أمثلة قليلة منها:

- أن عقبة بن أبي معيط جاء بسلا جزور¹ فوضعه على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي عند البيت.
- وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم همزه ولمزه، ففيه نزلت الآيات في سورة الهمزة.
- وكان أبو جهل يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا - بالقول وبالفعل - فكان يمنع من الصلاة في الحرم.
- وطال العذاب الأليم كل من أعلن إسلامه بقريش، فهذا عثمان بن عفان أذاه عمه، ومصعب بن عمير طردته أمه، وهذا بلال مولى أمية بن خلف كان يضربه بالعصا ويتركه في حر الشمس.. وعمار بن ياسر قتلا والداه من شدة العذاب فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة".

3. الهجرة إلى الحبشة:

في السنة الخامسة من النبوة وبعد أن نزل قوله تعالى: { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ.. } الزمر/ 10. أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للصحابة أن يخرجوا لأرض الحبشة قائلاً: «.. إن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل لكم فرجا مما أنتم فيه»، فنخرج فوج من الصحابة مكوّن من اثني عشرة رجلا وأربع نسوة، في مقدمتهم: عثمان بن عفان، والسيدة رقية (بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم)، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف.. رضي الله عنهم حتى اجتمع في أرض الحبشة بضعة وثمانون رجلا وتسع عشرة امرأة.

1 هو الجلد الرقيق الذي يخرج عقب ولادة الجمل الصغير.

ولما رأت قريش ذلك، أرسلت إلى النجاشي عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص - قبل أن يسلموا - ومعهما هدايا كثيرة، رجاء أن يرفض ملك الحبشة جوار المسلمين ويسلمهم لقريش. لكن لما استمع النجاشي لجعفر بن أبي طالب (وكان هو المتكلم عن المسلمين) اطمأن لكلامه لما سمعه من الحق والقرآن، فأذن للمسلمين بالبقاء وردّ هدايا قريش، فعادت رسل قريش خائبة.

4. إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما:

بعد خيبة أمل قريش في القضاء على الصحابة الفارين إلى الحبشة، بدأت تفكر في قتل صاحب الرسالة حتى لا ينتشر هذا الدين، فجاءت أولا إلى عمه أبي طالب وهددته، فإما أن ينهائه ويوقفه عن دعوته أو المقاتلة، فلما عرض أبو طالب الأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك فيه - ما تركته).

- ثم تجرأ عتيبة بن أبي لهب - يوما - فأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا حتى شقّ له قميصه، فدعا رسول الله بأن يسلم الله عليه كلبا، فأكل رأسه بالشام.

- وأخذ أبو جهل حجرا - يوما - وأراد أن يلقيه على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، فتمثّل له جبريل عليه السلام بفحل من الإبل فأرعبه ورجع.

- وقد قام عقبة بن أبي معيط بخنق رسول الله صلى الله عليه وسلم خنقا شديدا حتى دفعه عنه أبو بكر الصديق وهو يقول: "أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله..".

في هذا الجو المظلم بالعدوان - في أواخر السنة السادسة من النبوة - أضاء نور الإسلام بحمزة بن أبي طالب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

5. المقاطعة العامة (الحصار الاقتصادي):

لما فشلت قريش في قتل النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة طلبت من بني هاشم وبني المطلب أن يسلموه لهم فأبوا ذلك، فأجمعت قريش على منابذة محمد ومن معه ومن يحميه، فكتبوا بذلك كتابا تعاقدوا فيه ألا يناكحهم ولا يبائعهم ولا يقبلوا منهم صلحا، ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموه للقتل، وعلّقوا الكتاب في جوف الكعبة. بدأ تطبيق هذا الميثاق الظالم في السنة السابعة من البعثة الحمديّة واستمر طيلة ثلاث سنوات، اشتد فيها البلاء حتى أكل فيها المسلمون ورق الشجر والجلود.. ثم تلاوم قوم من بني قصي فأجمعوا على نقض ما تعاهدوا عليه وفكّ الحصار، كان هذا في السنة العاشرة من البعثة.

6. عام الحزن:

وفي هذه السنة (العاشرة) توفي عم النبي أبو طالب، وبعد وفاته بنحو شهرين توفيت زوجته أم المؤمنين خديجة. قال ابن إسحاق: لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تطمع به في حياة أبي طالب.

سمي هذا العام (10 من النبوة) بـ"عام الحزن" لشدة ما كابد فيه النبي صلى الله عليه وسلم من الشدائد في سبيل الدعوة.

ثانيا: العبر والعظات (الفوائد):

1. في الأمر الإلهي "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" دليل على وجوب بدء المسلم بأهله وقرابته في الدعوة إلى الحق قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ..﴾ التحريم/6. وقال أيضا: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ طه/ 132.

2. في اتخاذ رسول الله ﷺ جبل الصفا مكانا لإعلان دعوته، وندائه بصوت مرتفع أدلة قاطعة على أنه رسول الله لجميع الناس وليس خاصا بقبيلة أو حي (وقد كانت قريش ممثلة العالم آنذاك).

3. في قوله عليه الصلاة والسلام لبطون قريش: "لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي صدقا"، فوائد منها:

أ. أن الإسلام يدعو إلى إعمال العقل والتفكير أولا ثم الاستدلال والاستنتاج والمجادلة.

ب. إقرار قبائل قريش بصدق وأمانة محمد صلى الله عليه وسلم.

4. في قوله (أنقذوا أنفسكم من النار) دلالة على رحمة هذا النبي بقومه.

5. حجة هؤلاء الكفار في ردّ دعوة نبيهم هي: تقليد أجدادهم وعدم مخالفة الموروث الموجود قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا

إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ﴾ المائدة/ 104 لهذا الشرك هو اتباع أعمى، أما الإسلام فهو

توحيد مبني على الفطرة السليمة والفكر الصحيح، قال تعالى ردّا عليهم: ﴿أُولُو كَانٍ آبَاءُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

6. فوائد الهجرة إلى الحبشة :

أ. الهجرة في سبيل الدين وتحقيق العقيدة نوع جهاد

ب. جواز هجرة المسلم من البلد الذي أُوذِيَ فيه إلى بلد أقلّ إيذاءة

ج. جواز دخول المسلم في حماية أو جوار غير المسلم (كافرا أو أهل الكتاب) عند الضرورة الشرعية .

د. رغم قلة عدد المهاجرين إلى الحبشة إلا أنها اكتست أهمية بالغة من حيث تربية المسلمين على الصبر ومفارقة الأهل والوطن

من جهة ، وهي مقدمة للهجرة الثانية المدينة من جهة أخرى.

7. أعطى إسلام حمزة وعمر رضى الله عنهما للمسلمين قوة وعزة وظهور لم يبلغوه من قبل، وهناك سمي رسول الله عمرا

بالفاروق.

8. في وفاة عمّ النبي ﷺ أبي طالب الناصر له وزوجته خديجة المؤنسة له حكم منها:

أ. حتى لا يقال إن أبا طالب هو الذي حمى - بحمايته لابن أخيه- الدعوة الإسلامية حتى انتقل المسلمون إلى المدينة.

ب. النصر والعناية من الله تعالى لنبيه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصَمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وقد عصمه من القتل حتى لا تتوقف الدعوة.

ج. ومع العصمة كان شيء من الاضطهاد والأذى، وهذه سنة الله في الرسالة الإسلامية، فكل من تبعها إلا وتحمل بعض ما

تحمله صاحبها عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ولو لم يكن التمكين لدين الله إلا بالتعب والمشقة لاستخف به كل مدّع

ولنال منه كل مستراح.

9. توالى الأحزان في السنة 10 بسبب رجوع الناس وامتناعهم عن قبول الحق قال تعالى: ﴿قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ

فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلٰى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ

نَصَرْنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيِّ الْمُرْسَلِينَ﴾. الأنعام/33، 34.